# زواوة من عهد الفينيقيين إلى ما بعد الفتوحات الإسلامية

**الأستاذ: احمد بن رمضان**
**جامعة الجزائر**
**البريد الالكتروني : a.benramdane @yahoo.fr**

**ملخص**
زواوة من القبائل البربرية التي سكنت بالمغرب الأوسط ، وعرفت سواحلها احتلالات عديدة ، منها الفنيقيون الذين بنوا عدة مراكز تجارية عليها ، مثل بجاية و دلس، تعاملوا مع سكانها البربر تجاريا،ثم جاء الرومان بعد سقوط قرطاجة، و واجهوا مقاومة عنيفة من طرف زواوة، و لم يستطيعوا التوغل الي داخلها،بل اكتفوا باحتلال المدن الساحلية وبعض السهول القريبة منها، وبعد دخول الفاتحين المسلمين، تقبل سكان زواوة الديانة الجديدة علي غرار بقية البربر، ثم ظهرت في شمال إفريقيا ممالك بربرية إسلامية عديدة، حاولت السيطرة علي منطقة زواوة ، وإخضاعها لحكمها،كما أقامت زواوة تحالفات مع القبائل التي تجمعها بها صلة القرابة والنسب،مثل كتامة وصنهاجة
عرفت زواوة ازدهارا وتقدما في جميع الميادين، لاسيما في العلوم والمعرفة ، وكانت مدينة بجاية، تمثل احدي قلاع الحضارة العربية الإسلامية آنذاك

**Résume**
Les zouaoua sont des tribus berbères qui vivaient au Maghreb central et ses côtes ont connues plusieurs colonisations tels que les Phéniciens, qui ont construit plusieurs centres commerciaux, tels que Bejaïa et Dellys, et qui ont eu des relations commerciale avec la population Berbères, puis les Romains sont venus après la chute de Carthage, et ont fait face a une vive résistance de la part des Zouaoua, qu' ils ne sont pas arrivé a pénétrer, ils se sont contenter d'occuper les plaines et les villes côtières voisines, et après l'entrée des conquérants musulmans, la population des zouaoua a adopter la nouvelle religion a l'instar des autres Berbères, est alors apparu en Afrique du Nord, plusieurs royaumes berbères islamiques, qui ont essayé de contrôler et coloniser la zone des zouaoua, cette

dernière a établie des alliances avec les tribus avec lesquelles elle possédaient des liens de parenté, telles et Snhajha et koutama
La zouaoua a connue une ère de prospérité et de progrès dans tous les domaines, en particulier dans celui de la science et le savoir, et la ville de Bejaïa, représentait a l'époque l'une des forteresse de la civilisation arabo-islamique

**أ-أصل التسمية :** لم يذكر اسم زواوة في المصادر التاريخية القديمة سواء اليونانية أو الرومانية أو البيزنطية ضمن القبائل الأمازيغية.

و المراجع الاجنبية حاولت أن تلامس حقيقة التسمية باعتماد مؤلفيها على بعض الفرضيات ، حيث أطلقت اسم الكانكوجنتيان Quinquegeutien (1)على سكان جرجرة ، و يراد بهذا المصطلح أنه صفة تطلق على مجموعة من خمس فرق أو قبائل، أو الاتحاد الذي أعضاؤه ينحدرون من أب واحد . و ربما يتفق هذا مع التفسير اللغوي الذي قدمه أبو يعلى الزواوي حين أشار إلى ذلك بقوله : " إنما سموا بزواوة لكثرة جموعهم " إذ أن معنى زواوة بلغتهم ، جمع الشيء فهو زوا ، و أزوي تعني جاء و معه غيره ، و هيإشارة إلى اتحادهم و تحالفهم أمام الأخطار(2) .

أما صاحب كتاب "مفاخر البربر" فيؤكد أن اسم زواوة zouaoua هو تصحيف للاسم البربري " قواوا" أو "زواوا" نسبة لأحد أبناء يحيى بن تمزيت بن ضريس ، و يدعى زواوا، و منه أخذت هذه القبيلة تسميتها و هي من البتر(3). و قد أكد ابن خلدون أول الأمر على هذا النسب ،ثم تراجع عنه ، و أقرّ ما قاله ابن حزم الأندلسي بأن ردها إلى البرانس (4).

أما أصول زواوة البربرية ، فقد اعتبرها بعضهم فرعا من فروع قبيلة كتامة(5) ، أي أنها من البرانس مثل ابن خلدون ، في حين اعتبرها آخرون مثل قبيلة **زواغة(6)**يجمعها أصل واحد وهو سمكان ابن يحيى بن ضريس بن زجيك بن مادغيس الأبتر ، و بالتالي فهي فرع من البتر.

لقد اختلف المؤرخون في أصل زواوة ، فهل هي من البرانس كما قال بعضهم ، أم هي من البتر كما قال البعض الآخر ، كما أن التقسيم الذي أدرجه بعض المؤرخين للتمييز بين قبائل البربر لا زال أمرا غامضا لا يستند إلى أي معرفة علمية(7) .

أما وجود قبيلة زواوة و تركزها في العصر الوسيط فكان بين بجاية شرقا ، و دلس غربا و سفوح جرجرة و مواطن عجيسة(8)جنوبا. و زواوة ليست قبيلة واحدة ، بل

مجموعة قبائل و قد ذكر ابن خلدون احدى عشر بطنا و ثلاثة و عشرين قبيلة (9). وفي الجدول التالي تظهر بطون زواوة قبائلها :

**بطون زواوة حسب نسابة البربر نقلا عن ابن خلدون**

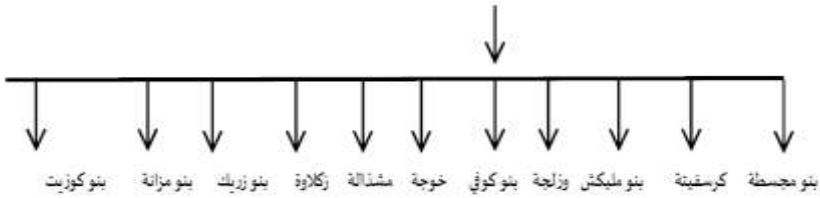


**قبائل زواوة التي ذكرها ابن خلدون إلى عهده**

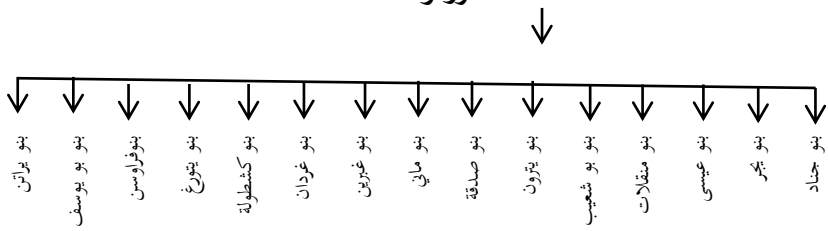


و يذكر ابن خلدون في مقدمته أن قبائل زواوة كانت تعيش في تجمعات سكنية قريبة من بعضها البعض ،و ذلك لضرورة تأمين العيش ، و حماية الذات ، في ظل غياب السلطة المركزية ، الأمر الذي يدفعهم إلى السكن في أماكن محصنة للدفاع والحماية و إرهاب العدو(10) .

**ب- الحضور التاريخي و السياسي لزواوة في القديم :**

**1- في العهد الفينيقي :** إن أهم ما يسترعي الباحثين في التاريخ ، قلة المصادر ، وغياب الرصيد الوثائقي لمرحلة ما قبل الإسلام في المغرب الأوسط ، ولعل السبب راجع إلى جهل المؤرخين باللغات القديمة ، أو نفورهم من هذه الفترة التي تغلب عليها الوثنية ، بدليل أن ابن خلدون المحاضر في ثقافة وتاريخ المغرب ، لم يكتب عن هذه الفترة . و بالعكس من ذلك فإن الأوربيين المستعمرين لبلدان المغرب ، كتبوا حول هذه الفترة ، و خاصة حول المرحلة الرومانية و مدى تأثير حضارتها على المغاربة(11) ، دون إشارة إلى نظيرتها الفينيقية التي كانت السباقة إلى المنطقة ،

حيث نجح عدد من تجار الفينيقيين ، الذين جاؤوا من السواحل الشرقية للبحر الأبيض المتوسط،أو ما كان يسمى فينقيا في القديم ، و هي لبنان الحالية و جزءا من سواحل سوريا – من بناء مركز تجاري شمال تونس ، وسموه قرطاجة(12) ، و ذلك سنة 814 قم ، و أصبحت فيما بعد عاصمة لهم ، و عمل الفينيقيون على تمتين الروابط مع السكان المغاربة ، و الترويج لبضائعهم ، و أقاموا عدة مراكز و مدن تجارية على السواحل المغاربة ، نذكر منها : هيبوريجيوس Hiporegivs عنابة،Rusicu سكيكدة ، وIcossim الجزائر ، وYol شرشال ، وCartennai تنس ، وGunugu قوراية ، وTingi طنجة ، وLipsos العرائش(13) وغيرها، على السواحل الليبية والتونسية ، وكذلك على السواحل الأوروبية ، وفي نفس الوقت تعاملوا تجاريا مع سكان هذه السواحل المغاربية ، ومنها ساحل زواوة ، حيث أنشأوا عدة مراكز تجارية تحولت إلى مدن مع مرور الوقت، ومن هذه المراكز التجارية نذكر SALDAE بجاية، وRUSUSCCURU دلس، و RUZAZUS أزفون(14) . و نتيجة لذلك تمكن سكان زواوة من التعامل مع الفينيقيين ، والخروج من العزلة التي كانوا عليها ، و استفادوا من مظاهر التطور الحضاري الذي وصل إليه الفينيقيون(15) .

وأصبح سكان زواوة يقصدون هذه المدن لاقتناء حاجياتهم ، و اقتباس بعض المظاهر المدنية والحضارية للفينيقيين.

و ذكرت النصوص التاريخية أن المغاربة عموما ، و سكان زواوة ، تعلموا من الفينيقيين أساليب تطوير الزراعة ، و إدخال بعض الأدوات الفلاحية و أنواع البذور، و كيفية غرس بعض الأشجار المثمرة ، كما تعلموا كيفية عصر العنب ، و صناعة الحلي ، و نحت الحجارة النفيسة ، و استخراج المعادن(16) . كما تأثر سكان زواوة باللغة الفينيقية حيث أخذوا بعض الحروف الهجائية الفينيقية ، و هذا ما ذكره "سي عمار بوليفة " في كتابه : "جرجرة عبر التاريخ" حيث أعطانا بعض الأمثلة عن ملامح التأثير اللغوي الفينيقي على سكان زواوة(17) .

و قد ساعد الاتصال الحضاري لسكان زواوة مع الفينيقيين على تفتحهم على العالم الخارجي و بروز كيانهم القبلي الذي اتضح أكثر مع دخول الرومان بعد سقوط قرطاجة سنة 146 ق م .

**2- في العهد الروماني :**

بعد الحروب البونية (149-146 ق م) التي كانت بين روما و قرطاجة و التي انتهت بسقوط قرطاجة سنة 146 ق م ، تمكنت روما من الحصول على مكاسب إقليمية

هامة و اتبع قياصرة روما سياسية مهادنة مع الملوك المغاربة الذين آزروهم ضد قرطاجة ، و بادروا إلى عقد سلسلة من الاتفاقيات و المعاهدات مكنتهم من إقامة مشاريع اقتصادية إلى جانب توطين عدد كبير من الجالية الرومانية في مختلف المدن المغربية ، الشيء الذي هيأ المناخ لسياسة **الرومنة (18)**.

و بدأت تظهر حركات مغربية مناهضة لهذا التواجد ، و اشتعلت الثورات الشعبية ، و انتهت هذه الثورات بهزيمة المغاربة ، و أسقطت روما مملكة نوميديا و أصبحت ولاية رومانية. فما هو موقف قبائل زواوة التابعة لمملكة نوميديا من السياسة التوسعية للرومان ؟

لقد أكدت جميع النصوص التاريخية ، أن قبائل زواوة أظهرت موقفا معارضا لهذا التوسع الروماني ، و الذي تجسد في الانتفاضات و المقاومات المستمرة ، الشيء الذي دفع بالإمبراطور أكتافيوس بضم منطقة زواوة إلى موريطانيا القيصرية (شرشال) سنة 33 ق م . و رغم ذلك عرفت منطقة زواوة أوضاعا غير مستقرة ، إلى أن أعلن الإمبراطور " كلوديوس" ضمها نهائيا إلى المنطقة العسكرية سنة 42 م (19). لكن سكان زواوة أعلنوا الثورة على الرومان مرة أخرى سنة 293 م، وتدخل الإمبراطور "ماكسيمان هيركول " بنفسه لقيادة الجيش الروماني ليقضي عليها سنة 297 م ، وخلد والي شرشال هذا الإنتصار على صخر وجد في أنفاق كنيسة بجاية كتب عليه بأنهم قضوا على ثورة الكانكوجنتيان(20)Quinquegeutien.

و رغم هزيمة قبائل زواوة ، إلا أن الجيش الروماني لم يستطع التوغل إلى داخل المنطقة الجبلية ،وذلك لصعوبة المسالك الجغرافية التي تحصنت بها قبائل زواوة ، و عجز الرومان على اختراقها ، وأطلقوا على جبال جرجرة اسم " جبال الحديد "Montferatus(21)، ولم يتجاوز الاحتلال الروماني لزواوة سواحلها و بعض الأراضي الزراعية القريبة من هذه السواحل ، و بقيت غالبية زواوة بمعزل عن السيطرة الرومانية ، رافضة لفكرة الاندماج وكأنها كانت أشبه بجزيرة مستقلة في بحيرة رومانية ، و اعتبرت زواوة رمزا للمقاومة الوطنية(22) ، و اكتفى الرومان ببناء حصون و قلاع في كل من أزفون ، روزازوس . و دلس ، روزوسكورو . و بجاية ، صلداي .

و بقيت ظاهرة التمرد على السلطة المركزية في عهد الوندال ، ثم البيزنطيين ، وتلخص شهادة أحد الباحثين الفرنسيين شجاعة أهل زواوة ، و رفضهم الاندماج في المنظومة الأوروبية حيث يقول: " إن سكان هذه البلاد كانوا يطمحون إلى الحرية ، إذ

كانوا أباة الضيم،ولهذا كانوا يثورون على الحكام (23) . و بقيت منطقة زواوة ، طيلة هذه الفترة ، و في الفترات المتعاقبة ، قلعة حصينة ، حتى أن الاستعمار الفرنسي ، لم يتمكن من السيطرة عليها إلا بعد بناء حصن نابليون. " فور ناسيونال" Fortnational، بالقرب من آث يراثن .

و أهم نقطة نستخلصها مما سبق أن قبائل زواوة ، تعاملوا بمرونة مع الفينيقيين ، و استفادوا منهم في جميع نواحي الحياة ، ربما أنهم كانوا يشعرون بوحدة الانتماء العرقي ، الذي تأصل أكثر مع الفاتحين المسلمين ، عكس موقفها المعارض للاحتلال الروماني الذي واجهته بمقاومات عنيفة حالت دون إخضاعهم لسياسة الرومنة .

**ج - زواوة بعد الفتوحات الإسلامية :**

لقد كان الفتح الإسلامي لبلاد المغرب صعبا و شاقا ، حيث عمرت عملية الفتح في بلاد المغرب فترة أطول عكس نظيرتها في المشرق ، و مرد ذلك يعود إلى جملة من الأسباب السياسية و العسكرية و الطبيعية ، عطلت جهود الفاتحين في تحقيق الانتصار على خصومهم من البيزنطيين و البربر، واصطدم المسلمون بمقاومة بربرية منظمة وعنيفة ، لكن قدوم عقبة بن نافع(670-674 م) أدى بعملية الفتح مسارا آخر، دفع بالقبائل البربرية إلى الإسلام ،" رغم ما حصل من تردد و ارتداد (24) . و في عهد " موسى بن نصير" (695-714 م) ، تدعمت عملية الفتوحات ، و ذلك بمعاملته الحسنة و إشراك البربر في فتح الأندلس (711 م) ، و استمال البربر إليه ، و أدمجهم في المنظومة الإسلامية . و قد أكد قوتي Gautier أنه دخل الإسلام كل من كان في حاجة إلى لغة مكتوبة، كل هؤلاء دخلوا الإسلام دون تحفظ(25). أما منطقة زواوة فلم تكن بمنأى عن هذا التأثير ، و لا توجد مصادر عربية أو غيرها تمدنا بأخبار قبائل زواوة و كتامة خلال فترة الولاة، عكس قبائل زناتة التي كانت تعارض الدولة الأموية (26).

**د- علاقة زواوة بالدول المركزية و القبائل العربية و البربرية :**

بعد انتشار الإسلام في الدول المغاربية، ظهرت ممالك و دول ، وهي: الأغلبية ، الفاطمية ، الزيرية ، الحمادية ، الموحدية ، و الحفصية .و السؤال المطروح هو : ما هي مظاهر العلاقة بين قبائل زواوة ، و هذه الدول ، و كيف كانت تتعامل معها ؟

**1- الدولة الأغلبية (800-909 م) :**

كانت منطقة زواوة ، تابعة لمدينة بجاية خلال العصر الوسيط ، و التي كانت خاضعة بدورها لسلطة الدولة الأغلبية في إفريقيا (تونس) .

و كما أسلفنا سابقا ، فإن الموقع الجغرافي لقبائل زواوة من جبال وعرة ، و فخاخ ، شكلت مناعة طبيعية ، و قد ذهب إلى ذلك ابن خلدون في قوله : " و أوطنوا منها جبالا شاهقة متوعرة تنذعر منها الأبصار "(27). وهذا أدى إلى بقاء النظام القبلي محتفظا بكيانه ، حيث أشار إليه ابن خلدون : " و جبالهم ما بين بجاية و تادلس ، وهي أعصم معاقلهم ، وأمنع حصونهم ، فلهم بها اعتزاز على الدول ، و الخيار في إعطاء المغرم ، مع أن كلهم ... قد امتنع لمساهمه ، و اعتز على السلطان في أنباء طاعته و قانون مزاجه "(28).

فالحصانة الطبيعية التي كانت تتمتع بها منطقة زواوة ، و التضامن الآلي بين قبائلها عند حدوث أي خطر ، ولد لديها الشعور بالمنعة و القوة ، و اقتنعوا بأن خضوعهم للدولة الأغلبية سيؤدي إلى إضعافهم ، و استباحة ممتلكاتهم . و لعل هذه المعطيات هي التي تفسر عجز الدولة الأغلبية في السيطرة على زواوة ، و إرغامهم على دفع الجباية ، فكل القبائل معبودة للمغارم ، إلا زواوة بجبالهم على حد تعبير ابن خلدون (29). و مما زاد في تعزيز استقلالية زواوة على الدولة الأغلبية هو البعد الجغرافي بين إفريقيا (تونس) ، و منطقة زواوة ، بالإضافة إلى وقوف زواوة إلى جانب جيرانهم كتامة في التحالف الذي قادته هذه الأخيرة في محاربة الدولة الأغلبية .

**2- الدولة الفاطمية (907-973 م) :**

لقد كانت قبائل كتامة و زواوة و عجيسة متحالفة فيما بينها ، و هذا بفضل أبا عبد الله الشيعي الذي نجح في تطويع هذه القبائل ، و الدعوة إلى آل البيت ، و بفضل مؤازرتهم لأبي عبد الله الشيعي، تمكن هذا الأخير من القضاء على الدولة الأغلبية ، وإقامة الدولة الفاطمية سنة 907 م ، ورغم المدة الزمنية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب، والتي قاربت خمسة وستين سنة (907-973 م) والتي امتدت على مساحة جغرافية واسعة (من ليبيا شرقا إلى المغرب الأقصى غربا ، و إقليم الصحراء جنوبا)، فإنها لم تخل من مظاهر المعارضة الرافضة لفكرة التشيع ، و الموقف المتصلب الذي تبناه فقهاء المذهب المالكي في بلاد المغرب .

و أدت كثرة حركات التمرد على الدولة الأغلبية إشعار الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بالخطر الداهم ، لا سيما من قبائل زناتة ، فجهز جيشا بقيادة جوهر الصقلي ، و بمشاركة عدد كبير من قبائل كتامة ، إلى فتح مصر(30) . و هذا ما أدى إلى هجرة الفاطميين إليها مع حلفائهم من كتامة وغيرهم ، كما تراجعت حركة التشيع بفعل محاصرة أهل السنة لها .

و نستخلص من كل ذلك أن علاقة قبائل زواوة بالدولة الفاطمية ، قد شابها غموض كبير ، و لم تخرج عن نطاق التحالف العسكري مع قبيلة كتامة التي كان لها الدور البارز في التشيع، و إقامة الدولة الفاطمية .

**3- الدولة الزيرية (972-1121 م) :**

لقد كانت العلاقة السياسية بين قبائل زواوة و الدولة الزيرية في طريق التطور المرحلي ، خلال بداية الدعوة الفاطمية ، و شكلت فيما بينها تحالفا قبليا ، واجه به عبد الله المهدي خصومه من الأغالبة و قبائل زناتة ، أما بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، فقد تحول هذا التحالف إلى عداء بينها و بين قبائل زواوة ، و يجب الإشارة إلى أنه رغم سيطرة الزيريين على المنطقة الشرقية من المغرب الأوسط ، إلا أن موطن زواوة ظل بعيدا عن نفوذهم و سلطانهم ، مما ساعد قبائلها في تعزيز استقلالها .

**4- الدولة الحمادية (1008-1152 م) :**

لقد حققت الدولة الحمادية بعض النجاح في ترويض قبائل زواوة ، و إدخالها في النظام العام ، إلا أن ذلك لم يسمح لها عمليا بالتغلغل في الوسط القبلي ، واكتفت بسلطة رمزية ، في حين ظلت منطقة زواوة و قبائلها بمثابة القلعة المحصنة، محافظة على استقلالها طيلة فترة العصر الوسيط ، لكن هذا لا يعني أنها كانت منعزلة تماما ، بل على العكس ، فقد استطاعت أن تكون شبكة من العلاقات التجارية مع القبائل و المدن المجاورة لها ، و على علم بكل الأحداث و التطورات التي كان يعيشها المغرب .

**5- الدولة الموحدية (1131-1269 م) :**

بعد فتح مدينة بجاية على يد "عبد المؤمن بن علي " (1065 م) و إسقاط الدولة الحمادية ، ثارت عليه قبائل زواوة ، و لم تدخل في طاعته ، كما امتنعت عن دفع الضرائب ، و شنت غارات متكررة على الحاميات العسكرية في بجاية ، لأن الدولة الموحدية في أذهانهم تمثل عدوانا خارجيا عليها .(31) و كذلك رغبة زواوة في الابتعاد عن أي هيمنة أو ضغط سياسي قد تمارسه الدولة على قبائلها .

وتكررت التمردات على الدولة الموحدية من طرف قبائل زواوة ، و القبائل الأخرى مثل زناتة وصنهاجة ، بالإضافة إلى عجز جيش الدولة الموحدية على التصدي لهذه التمردات ، بالإضافة إلى مشاكل السياسية التي كانت تعانيها في الأندلس (32). و كانت هذه التمردات من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الموحدية سنة

1269 م ، و انقسامها إلى ثلاث دويلات و هي : الدولة الحفصية في تونس ، و الدولة الزيانية في تلمسان ، و الدولة المرينية في فاس .

**6- الدولة الحفصية (1229-1273 م) :**

إن الإشارات المقتضبة ، و النصوص الغائبة ، حول نوعية العلاقة بين قبائل زواوة ، و الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب سمحت برصد بعض الملاحظات والاستنتاجات ، و منها أن قبيلة زواوة ، ظلت على امتداد العصر الوسيط ، تشكل وحدة اجتماعية و اقتصادية ، و تمتعت بخصوصية تاريخية تأرجحت ما بين الانفصال التام و الاستسلام كما هو الحال مع الحماديين ، أو حالات وسطى متعايشة في ظل حكم الحفصيين ، فقد كانت الدولة مضطرة في كثير من الأحيان إلى قبول بعض الحالات التي لم تكن قادرة على منعها مكتفية بتلقي شواهد الطاعة ، أو الولاء المؤقت المصحوب بجباية الضرائب ، و مرد ذلك يعود إلى حجم المشكلات التي عانت منها الدولة من مظاهر الانقسام و الصراع الداخلي إلى التهديدات ، والأطماع الخارجية ، و ثورات الأعراب ، و غزو النصارى سواحلها ، كل هذه الظروف التي أحاطت الدولة ، كرست فكرة استقلالية قبائل زواوة عن السلطة المركزية .

و بالنسبة للعلاقات التي كانت بين قبائل زواوة ، و القبائل العربية الوافدة إلى بلاد المغرب، فقد كانت في حالة نفور في بداية الأمر، و مع مرور الوقت تحولت إلى اندماج سوسيولوجي بفضل علاقات الجوار التي لعبت دورها في مد جسور التواصل بين مختلف الفروع العربية و البربرية ، كما أن التنوع الثقافي ساعد في إحداث نوع من التعايش بين هذه المجموعات .

أما علاقات زواوة مع القبائل البربرية الأخرى ، فقد كانت هناك صراعات بين زواوة و الموحدين، و الزيانيين و الحفصيين من جهة، و بين الأعراب الهلالية من جهة أخرى، و هذا أدى إلى إيجاد علاقات تحالف و تضامن بين قبائل زواوة فيما بينها أولا، ثم القبائل البربرية التي تجمعها بها صلة قرابة و نسب ، مثل كتامة، و صنهاجة.

**هـ- مدن زواوة :**

و بالنسبة لمدن زواوة ، فقد كانت قليلة ، و غالبية سكانها يعيشون في قرى ، و أشار ابن خلدون في مقدمته ، " إلى قلة الأمصار ببلاد البربر لرسوخهم في البداوة "(33) . و من المدن الكبرى نجد : دلس ، و مرسى الدجاج ، و بجاية ، و كانت عبارة عن مرافئ صغيرة ومع مرور الزمن تحولت إلى مدن كبرى . أما بقية المدن فقد كانت عبارة عن

قرى أو بلدات صغيرة ، مثل بني جناد ، و كوكو ، و تمزديكت ، و سوق حمزة ، و غيرها .

- **مدينة دلس** :و ترجع إلى الزمن الفينيقي ، و كان اسمها الأول هو Rousoukour، وأصبحت تادلس(34) منذ العصر الحمادي ، و كانت ملجأ للأندلسيين الهاربين من المرية ، و حاول الإسبان احتلالها سنة 1402 م ، " و بقيت تتجاذبها أطراف الصراع المغاربي لما كانت تمثله من استراتيجية دفاعية ، و أهمية تجارية إلى أن تملكها الثعالبة " (35).

و كان لدلس دور تجاري ، و هي منطقة عبور ، و تشكل حلقة وصل بين الموانئ المغربية ، و المتوسطية كالبندقية و صقلية و المرية و بلنسية . و هذا أدى إلى غنى السكان و ثرائهم ، و لا سيما القبائل القريبة منها كآيت جناد ، و فليسة ، كما انعكس إيجابيا على أوضاعهم الاجتماعية حسب شهادة " حسن الوزان " الذي وصفهم بأنهم ذو بشاشة و مرح ، يحسنون الغناء ، و يرتدون لباسا حسنا ، و لهم دور جميلة ، و قصور و متنزهات (36).

- أما مدينة مرسى الدجاج : فهي من أهم مدن زواوة ، و تقع في منطقة بني فراوسن(37) . و كانت ميناء هاما ، و مستهدفا من قبل النورمانديين ، و قد تبوأت مكانة هامة في شبكة المدن المغربية وذلك لإمكانياتها الاقتصادية .

-**مدينة بجاية :** و يرجع تأسيسها إلى الفينيقيين الذين سموها صلداي Saldae(38)، كما احتلها الرومان سنة 104 ق م (39). و خربها الوندال سنة 430 م ، و عرفت في عهدهم باسم غور Gour(40) ، أو الجبل الصخري . ثم استولى عليها البيزنطيون سنة 533 م عند احتلالهم لشمال إفريقيا . و بعد مجيء الإسلام تحدث عنها البكري ، و قال بأنها مدينة أزلية عامرة بأهل الأندلس ولها مرسى مأمون ، و بدأت تأخذ مكانتها التجارية قبل العصر الحمادي (41)،كما أشار "البكري" إلى وجود نهر كبير بشرقها تدخله السفن المحملة بالبضائع ، و هذا يعني أن ازدهارها اقترن بانتقال الحماديين إليها سنة 1068 م (42).

وتشير المصادر التي تحدثت عن بجاية في العهد الحفصي ، أن هذه المدينة كانت تعد من أكبر حواضر المغرب الأوسط ازدحاما بالسكان . و قد عرفت توسعا كبيرا في مجال العمران . إلى جانب ذلك ، فإن المكانة التي تبوأتها بجاية في العهد الحفصي ، و ما اضطلعت به من مهام و وظائف سياسية ، إدارية ، اقتصادية ، و ثقافية ، جعلت منها منطقة استقطاب لعدد كبير من السكان ، وقد أشادت المصادر

الجغرافية بمكانتها كعاصمة إقليمية ثانية بعد تونس ، فوصفها الإدريسي " بالمدينة القطب " (43). و أعجب بها العبدري فقال : "مدينة بجاية مبدأ الإتقان و النهاية ، وهي مدينة كبيرة حصينة ، منيعة ، شهيرة ، برية ، سنية ، سرية ، وثيقة البنيان ، عجيبة الإتقان ، رفيعة المباني " (44). كما تحتوي المدينة على هياكل عمرانية من القصور و الأبراج، مثل قصر الربيع ، الكوكب ، اللؤلؤة ، ميمون ، و قصبة البلد ، وزوايا و مساجد (45). كما كان بها أحد عشر بابا ، ومنها باب البحر ، باب المرسى ، باب سادات ، باب أميون ، باب البنود ، باب باطنة ، باب إيلان ، باب الدباغين ، الباب الجديد ، باب اللوز "(46) . أما اقتصاديا فقد استقطبت بجاية معظم تجار قبائل زواوة ، و اعتبرت باديتها خزانا اقتصاديا تمون أسواق المدينة بمختلف المنتجات الزراعية والصناعية نذكر من بينها : الزيت، الزيتون، التين، العسل، جلود الحيوانات، و من المواد الصناعية الخشب، و مادتي الزيت و القطران ، و مواد الصباغة التي تصدر عبر مينائها إلى أقاصي البلدان و الأمصار .(47) كما تأتي إلى بجاية أصناف من البضائع كالقطن و أنواع الأقمشة ، والتي تحمل من بجاية إلى أقصى المدن الإفريقية (48) .

إن مظاهر التطور و الثراء الاقتصادي الذي عرفته بجاية خلال العهد الحفصي، انعكس نفعه على معظم شرائح المجتمع إلى جانب سكان القبائل المحيطة بها، وبخاصة منطقة زواوة التي وجدت في أسواق المدينة فضاء للترويج لمنتجاتها الزراعية و الصناعية، و في نفس الوقت أمنت كل ما تحتاج إليه من السلع الوافدة إلى المدينة.

و بالنسبة للعمران الثقافي، فقد كان القرن الثاني للهجرة، فاتحة عهد جديد بعد أن تم الفتح الإسلامي، و أقبل فيه البربر على تلقي العلم و تعليمه لأبنائهم في الكتاتيب و المساجد و الزوايا و المدارس، لأنه الركيزة الأساسية التي تدفع بعجلة الحركة الفكرية نحو التقدم و الازدهار. و كانت طريقة تناول المواد الدراسية بالكتاب، قد " جعلت من القرآن الكريم القاعدة الأساسية التي تبنى عليها جميع المواد التعليمية التي يتلقاها الطفل مستقبلا (49).

أما مساجد بجاية ، فقد لعبت دورا هاما في ازدهار و إثراء الحركة الفكرية والتعليمية بما كان يعقد فيها من مجالس للذكر، و حلقات الدرس، فضلا عن المناقشات و المناظرات العلمية التي كان ينشطها بعض الفقهاء.

و بالنسبة للزوايا، فقد انتشرت في المغرب الأوسط عامة، و في منطقة زواوة خاصة منذ القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، و قد حققت نتائج عديدة منها :

- جسدت دورها ثقافيا حيث عززت انتشار التصوف، و تعميم التعليم، و تحفيظ القرآن الكريم ، و احتضانها للثقافة العربية الإسلامية، و قربت بين سكان المدينة والبادية . " وتأسيس زاوية " منصور الجنادي " في قرية " آث جناد " و التي احتضنت أبناءها وأبناء القرى المجاورة لدليل على ذلك " .(50)

- أما اجتماعيا، فقد استطاعت الزوايا التحكم في مختلف القوى الاجتماعية، حيث تعرض مشكلات الناس، و تحل الخصومات و ذلك بفضل مكانة الشيخ و مركزه الإجتماعي(51).كما أن هذه الزوايا تلقت دعما و سندا معنويا من مختلف شرائح المجتمع، نظرا لماتقوم به في عملية الإصلاح الاجتماعي، و قبل ذلك كمراكز إشعاع علمي و ثقافي .

أما المدارس فقد تأخر ظهورها في بلاد المغرب ، و ذلك حتى النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ، و قد أولى الحفصيون في تونس اهتماما كبيرا لهذه المدارس، عكس مدينة بجاية التي لم تحظ فيها بنفس الرعاية و الاهتمام، حيثاختار العديد من علماء زواوة المسجد لمزاولة نشاطهم التعليمي، و انتقل بعضهم إلى مدارس في تلمسان و مراكش، والأندلس. كما تحول عدد من منازل علماء زواوة إلى أماكن للتعليم و الدرس ، و قد جاء في ترجمة عبد الحق التيجاني ، أنه أخذ عن " أبي مدين شعيب " كتاب الغزالي الموسوم "بالمقصد الآسني في شرح أسماء الله الحسنى " بداره .(52) كما كانت هناك الكثير من حلقات الدرس و ندوات العلم تعقد في الحوانيت أو الضياع، و لم يكن النشاط العلمي محصورا في المساجد و الزوايا والمدارس.

و بالنسبة للمدن الصغرى في منطقة زواوة نجد :

-**مدينة بني جناد :** مدينة متوسطة و مرسى صغير ، و قد ذكر " عمار بوليفة " في كتابه " جرجرة عبر التاريخ " أنها كانت ضمن شبكة المدن الساحلية التي خضعت للاحتلال الروماني(53).و خلال العصرالوسيط احتكت بالعناصر العربية و الأندلسية ، و أشار "الورتلاني" في رحلته بأن عددا من علماء المدينة قد اندمجوا في هيكل التصوف(54)،و أكد ذلك " بوليفة "في تقريره عن زاوية "منصور الجنادي " (55) .

**-مدينة كوكو :** تقع داخل منطقة زواوة ، في جبل كوكو ، يتشكل سكانها من قبائل زواوة بنحو ألف و ستمائة ساكن و قلة من اليهود (56) .

**-مدينة تمزيردكت** : بناها السلطان الزياني أبوتاشفين سنة 1328 م (57)، و يقول ابن خلدون : " فاختط بنو زيان المدينة في أربعين ليلة ، و شحنوا إليها الأقوات و المدد، و عمروها بالمقاتلة من الرجال و الفرسان و القبائل ، و شحنت مخازنها بجميع المواد الضرورية " (58). و كانت على مشارف منطقة زواوة ، و كان هدف الزيانيين من بنائها في هذا المكان السيطرة على منطقة زواوة ، لكن الحفصيين تمكنوا من غزوها و ضمها إليهم (59) .

**-مدينة سوق حمزة :** تقع داخل منطقة زواوة ، في سهل فسيح ، يعرف بـ"وطا حمزة" . أسسها حمزة بن علي بن الحسن بن سليمان بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (60)، و قد كانت مدينة تجارية بالدرجة الأولى ، وأرضها خصبة ، و مياهها وفيرة، وساهم زيري بن مناد في ازدهارها (61).

**الهوامش :**

1-Berbrugger : les Epoques Militaires de la grande Kabylie . Bastide Librairie . Paris . 1857 . PP218-219

**2-** أبو يعلى الزواوي . " تاريخ زواوة ". مراجعة و تعليق سهيل الخالدي . منشورات وزارة الثقافة . الجزائر 2005. ص 108 .

**3-** مؤلف مجهول . مفاخر البربر . تح محمد يعلى المجلس الأعلى للأبحاث العلمية . الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي .مدريد . 1996 ص 215 .

**4-** ابن خلدون – العبر و ديوان المبتدأ و الخبر . مج6 . بيروت . لبنان 1992 ص 152.

**5-** المرجع نفسه .مج 6 . ص 174 .

**6-** المرجع نفسه . مج 6 . ص 153 .

**7-** عبد الحميد زغلول . تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية الاستقلال . منشأة المعارف . الإسكندرية . مصر 1978 . ص 88 .

**8-** ابن خلدون العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من السلطان الأكبر . ج 6 . ص 171 .

**9-** المرجع نفسه . ص 152 .

**10-** ابن خلدون . المقدمة . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . 2000 ص 102 .

**11**-البشير شنيتي .سياسة الرومنة في بلاد المغرب . المؤسسة الوطنية للكتاب. 1985 .ص 9 .

**12**- محمد صغير غانم . التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط . دار الهدى عين مليلة . الجزائر 2003 . ص.17

**13**- المرجع نفسه. ص22

**14**- محمد ارزقى فراد .أزفون تاريخ و ثقافة . دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع .الجزائر .2003.ص10

**15**- Si Amar Boulifa . le Djurdjura à travers l'histoire de l'antiquité à la pèriode coloniale . Berti ed . Dely Brahim – Alger . P 5

**16**- ibid...P 4

**17**- ibid...P 4

**18**- محمد البشير شنيني . الإحتلال الرومانى لبلاد المغرب ( سياسة الرومنة) المؤسسة الوطنية للكتاب 1985.ص9.

**19**- المرجع نفسه ص81.

**20**- أحمد صفر . مدنية المغرب العربي في التاريخ . دار النشر بوسلامة . مطبعة العمل التونسية 1959.ص373.

- المهدي البوعبدلي . تراجم لبعض مشاهير زواوة . مجلة الأصالة العدد14 مطبعة البعث . قسنطينة . 1973 ص266 .

21- Si Amar Boulifa . Le Djurdjura à travers l'histoire de l'antiquité à la Alger . P 2 . Période Coloniale . Berti Ed . Dely Brahim . p .2 .

**22**- المهدي البوعبدلي . تراجم لبعض مشاهير زواوة . مجلة الأصالة . العدد 14. مطبعة البعث . قسنطينة . ص266.

23 المرجع نفسه .ص 266.

**24**-ابن خلدون . العبر ، و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من السلطان الأكبر.6ص129 حيث قال : " ارتدت البربر اثنا عشر مرة".

25- E.FGAUTIER Le passet de l'Afrique du Nord, les siècles obscures . Paris , 1937 . P 257 .

**26**- هشام جعيط : تأسست الغرب الإسلامي . ط1.دار الطليعة.بيروت لبنان 2004.ص157

**27**- ابن خلدون . العبر . ج1 . 1999.ص 152 .

**28**- المرجع نفسه . ص175.

**29**- المرجع نفسه .ص.175.

**30**- فرحات الدشراوي . الخلافة الفاطمية بالمغرب ط1. دار الغرب الإسلامي .بيرون . لبنان ص378.

**31**-مصطفى أبو ضيف أحمد عمر . القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين .د.م.ج الجزائر .1982.ص156.

**32**- محمد المغراوي . الموحدين و أزمات المجتمع . مؤسسة جذور للنشر . الرباط.المغرب 2006 . ص 35.

**33**- ابن خلدون . المقدمة . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان 2000 ص273.

**34**- افدريسي. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر 1983. ص11

**35**- ابن خلدون . العبر ج6 ص402.

**36**- حسين الوزان : وصف افريقيا . دار الغرب الإسلامي . بيروت . لبنان 1983 .ص 42.

**37**- مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم و الحديث . ج1 مكتبة النهضة الجزائرية .2004-ص118.

**38**- حسن الوزان . وصف إفريقيا .دار الغرب الإسلامي . بيروت لبنان 1983.ص50.

**39**- المرجع نفسه .ص50.

40- Mouloud Gaid – Histoire de Béjaia et sa région depuis l'antiquité jusqu'au 1954 . Mimouni 1976 . P 56 .

**41**- البكري . المغرب في ذكر بلد إفريقيا و المغرب .مكتبة أمريكا و المشرق . فرنسا 1965.ص.82.

**42**- ابن خلدون . العبر ج7.ص.17.

**43**- الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .د.م.ج.الجزائر 1983.ص116.

**44**- العبدري: الرحلة المغربية . مطبعة البعث قسنطينة . بدون تاريخ .ص 23.

**45**- ابن خلدون : العبر.ص206.

**46**- الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . د.م.ج.الجزائر 1983.ص116.

**47**- حسن الوزان : وصف إفريقيا . دار الغرب الإسلامي .بيروت .لبنان 1983.ص169.

**48**- ابن خلدون .المقدمة .ص.458.

**49**- Amar Boulifa : le Djurdjura à travers l'histoire de l'antiquité à la période coloniale . Berti ed Dely Brahim . Alger . P 3 .

**50**- ibid . p 2 .

**51**- عمار طالبي : الحياة العقلية في بجاية . مجلة الأصالة السنة الرابعة .مارس /أفريل.مطبعة البعث قسنطينة 1974.ص159.

**52**- Amar Boulifa . : le Djurdjura à travers l'histoire de l'antiquité à la période coloniale . Berti ed Dely Brahim . Alger . .P8

**53**-الفضيل الورتلانى: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار طبعة دار الكتاب العربي .بيروت .لبنان1974.ص.7.

**54**- Amar Boulifa . : le Djurdjura à travers l'histoire de l'antiquité à la période coloniale . Berti ed Dely Brahim . Alger . . P 3 .

**55**- مسعود كواتى : يهود المغرب الإسلامي . دار هومة .الجزائر 1991.ص45.

**56**-ابن خلدون .العبر.ج6.ص436.

**57**-المرجع نفسه .ص436.

**58**-المرجع نفسه.ص436.

**59**- البكري: المغرب في ذكر بلد إفريقيا و المغرب . مكتبة أمريكا و المشرق فرنسا 1965.ص64.

**60**-المرجع نفسه .ص111.

**61**- أحمد توفيق المدنى :حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا . الفصل الخامس . ص220